اختلاف المفاهيم اللغوية بين الأمم، ما المجتمع مثلاً؟

الأستاذ عبدالرحيم أبواليمن
أوبلادن - ألمانيا الغربية

يكثر الكتاب والمفكرون في العالم المسمى بالعالم الحر من ذكر المجتمع وتحليله على اعتبار ان المجتمع هو مجموعة الناس من البلد أو البلد باعتبارها مسكونة بالناس . فيقولون قضايا المجتمع ، والنهوض بالمجتمع أو القضايا المادية للمجتمع وما شاكل ذلك . والعالم الغربي او ما يسمى بالعالم الحر هو المسيطر على اكثر أجزاء العالم ومنه العالم الاسلامي بحضارته ومفاهيمه ، ولذلك تركز هذا المعنى للمجتمع في اذهان الناس في العالم الاسلامي ولا سيما في اذهان المثقفين والمفكرين وحتى جمهرة اليساريين بجميع أنواعهم . وبالرغم من وضوح خطأ هذا المعنى ، ومن مخالفة الفكرة الاشتراكية له فانه ظل هو الغالب لدى المثقفين والمفكرين بل ظل هو المسيطر . ولما كان هذا المفهوم للمجتمع من الافكار الاساسية لدى الغرب ولدى الحضارة الغربية ، ولما كنا نحن المسلمين نعمل على قلع الحضارة الغربية من جذورها لازالة الخطر وخطر الغرب كله كان لا بد من توضيح معنى المجتمع بشكل شامل لمن سيطرت ثقافة الغرب على عقولهم من ابناء المسلمين ومنهم من يعتنقها ، لادراك واقعه حين ادراك مدلولاته .

واقع المجتمع انه مجموعة الناس بما بينهم من علاقات ، وليس مجموعة الناس فقط . فمجموعة الناس هي جماعة وليست مجتمعا . والذي يكون المجتمع هو العلاقات وتتميز المجتمعات عن بعضها بحسب هذه العلاقات ، والا فالناس في كل بلد هم الناس ، اي هم اشخاص من بني الانسان لا تتميز جماعة عن جماعة الا بالعلاقات . ان المجتمع في حقيقته التفصيلية هو اناس ، وافكار ، ومشاعر ، وانظمة . هذه الامور الاربعة هي المجتمع . ذلك ان الذي ينشيء العلاقة بين الناس هو المصلحة ، فاذا وجدت مصلحة كانت العلاقة ، واذا لم توجد مصلحة لا توجد علاقة . والمصلحة مبنية على أفكار عن الشيء او الامر بانه مصلحة ، فاذا توافقت افكار الناس على امر بانه مصلحة وجدت بينهم علاقات وتوحدت هذه العلاقات ، واذا اختلفت افكارهم على امر من حيث المصلحة ، هذا يراه مصلحة وذاك يراه مفسدة فانه لا توجد بينهم علاقات . فالذي يوجد العلاقات بينهم هو اتفاق افكارهم على ان هذا الامر مصلحة . وهذا اول شيء في وجود العلاقة. الا ان هذا لا يكفي وحده بل لا بد ان تتوافق مشاعرهم نحو هذه المصلحة ، فاذا توافق فرحهم للمصلحة وتوافق حزنهم عليها وتوافق رضاهم عنها وتوافق سخطهم عليها الى غير ذلك من مظاهر المشاعر فان العلاقة توجد ، واذا لم تتوافق هذه المشاعر لا توجد العلاقة حتى لو وجدت الافكار ، فاذا حينئذ تكون مجرد أفكار فلسفية كفلسفة اليونان عند الفرنسيين مثلا ، فان الفكر لا يكون فكرا له واقع اي لا يكون مفهوما الااذا ارتبط بالمشاعر، فبوجود الافكار والمشاعر تتكون العلاقة . الا ان هذه العلاقة لا تخرج الى حيز الوجود ولا تكون لها ثمرة الا اذا توحدت بينهم الانظمة التي تنظم هذه العلاقة ، فوجود العلاقة ملموسة

ومثمرة لا يتاتى بتوحيد الافكار والمشاعر بل لا بد من توحيد الانظمة التي تنظم هذه المصلحة . بل ان الانظمة التي تنظم المصلحة اذا وجدت ، ولو بطريق الفرض والاجبار ، تنشأ عنها الافكار والمشاعر ، ولذلك كانت الانظمة في تكوين المجتمع عاملا وان كان دون اهمية المفاهيم اي الافكار التي اصبحت مفاهيم .

وعلى هذا فانه من الخطأ ان يقال قضايا المجتمع ويراد الناس ، بل قضايا المجتمع هي قضايا العلاقات بين الناس وليست قضايا الناس ، ولذلك فان اصلاح المجتمع هو اصلاح العلاقات وليس اصلاح الناس ، وتغيير المجتمع هو تغيير العلاقات وليس تغيير ما يستعمله الناس من ادوات ولا تغيير ما يلزم لحياة الناس . ومن هنا لم يكن جعل الغسالة الكهربائية مكان لجن (طشت) الغسيل ، وجعل المكنسة الكهربائية مكان مكنسة القش ، ولبس السروال الاجنبي مكان القنباز او الجلباب ، لم يكن ذلك كله وسيلة لتغيير المجتمع ولا اصلاحه ، فانه لا علاقة له في المجتمع . صحيح انه قد يؤثر على الافكار، وقد يؤثر على المشاعر، ولكنه تأثير انطباع وتقليد لا تأثير فهم واصالة ، وهو تأثير مؤقت من السهل ازالته ، ومع ذلك فانه لا ينشيء علاقة ولا يكون مجتمعا . بل اصلاح المجتمع وتغييره انما هو بتغيير الافكار والمشاعر والانظمة ، ولا يصلح ولا يتغير الا بذلك ، اي الا بالافكار والمشاعر والانظمة.

وانه وان كان ذلك ، اي فهم المجتمع هذا الفهم المغلوط يؤثر وقد اثر فعلا على الناس بوصفهم افرادا وبوصفهم جماعة ، وحال دون نهضتهم وجعلهم في حلقة مفرغة عشرات السنين ، ولكن تأثيره على السياسة اي على رعاية شؤون الناس كان افظع بل كان الكارثة التي حلت بهم والتي نقلتهم دون ان يشعروا الى اخذ الحضارة الغربية اخذا يصل الى حد الاعتناق في بعض الاحيان ، وجعلهم ينتقلون حتى في اذواقهم نحو مفاهيم الغرب من شدة تأثير الحضارة الغربية عليهم في اغتنامها فرصة الفهم المغلوط لمعنى المجتمع .

ولنأخذ من ذلك مثالين اثنين هما ـ مفاهيم الحكم ومفاهيم الاقتصاد ، لانهما اظهر المفاهيم التي اخذت عن طريق الفهم المغلوط للمجتمع ، واثرت على تصرفات الناس واذواقهم . فالغرب يرى ان الحكم للشعب ، وان السيادة للشعب ، وان القيادة جماعية ، وان الامة مصدر السلطات . وهذه المفاهيم هي افكار تتعلق بالعلاقات في السياسة ، اي بالعلاقات في رعاية الشؤون . وهي مفاهيم نشأت عند الغرب نتيجة الظلم السياسي الذي حصل في اوربا ثم في امريكا من قبل الملوك والامراء والاقطاعيين ، ومن قبل الدول الاستعمارية في امريكا حين كانت مستعمرات ، فنشأت عن هذا الظلم محاولات من قبل المفكرين ادت الى هذه المفاهيم . فجعل كل للشعب من اجل رفع الظلم السياسي عن الناس . وبالرغم من لمسهم ان واقع الحكم هو غير هذه المفاهيم ، ومع ذلك ظلت هي المسيطرة عليهم وعلى مفكريهم وتناسوا ان الواقع لا يمت بصلة الى هذه المفاهيم . ولما كان المجتمع عندهم هو مجموعة الناس فانهم لم يلاحظوا رعاية الشؤون اي السياسة هي علاقات الناس فيمن يحكمهم وليست حاكما ومحكوما . ولهذا اعتبروا مجموعة الناس هي المجتمع ، واعتبروا ان الناس هم الذين يحكمون انفسهم ، اي يرعون شؤونهم اي يرعون شؤون انفسهم ، فظلوا تائهين عن معاني هذه المفاهيم، يعتنقونها وان خالفت الواقع الذي هم فيه . فهم لم يلاحظوا ان الشعب لا يحكم ، فهو لا يتولى السلطة وانما الذي يتولاها نيكسون في امريكا ، وبريجنيف في روسيا ، وبومبيدو في فرنسا الخ . ومع ذلك ظلوا يقولون ان الشعب هو الذي يحكم ، ولم يلاحظوا ان الشعب لا يتولى القضاء وانما يتولاه قضاة قد درسوا القانون ، وانه كما يستحيل على الشعب ان يتولى السلطة كذلك يستحيل عليه ان يتولى القضاء ، فانهم ظلوا يقولون ان الشعب هو الذي يتولى القضاء تماما كما يقولون ان الشعب هو الذي يتولى الحكم . ولم يلاحظوا ان الشعب لا يتولى التشريع وانما يتولاه رجال القانون وتسنه الحكومة ، ومع ذلك ظلوا يقولون ان التشريع للشعب وان الشعب هو الذي يتولى التشريع ولم يلاحظوا ان الشعب ليس له في الواقع الا اختيار الحاكم وليس له عزله ، وان الحاكم هو الذي يشرع ، وهو الذي يسيطر على القضاء وانه لا توجد الا سلطة واحدة هي سلطة الحاكم . ومع ذلك قالوا ان هناك ثلاث سلطات هي السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية ، وان الشعب هو مصدر السلطات. نعم لم يلاحظوا مخالفة مفاهيم الحكم لواقع الحكم ، اذ اعماهم عن ذلك الفهم المغلوط عن المجتمع ، الى جانب ما سمعوه عن الظلم السياسي وما يتصورونه من هذا الظلم اذا لم يكن الشعب هو كل شيء .

هذا بالنسبة لمفاهيم الحكم ، اما مفاهيم الاقتصاد فان ما عانته اوربا من ظلم الاغنياء والاقطاعيين والتفاوت الفاحش بين الناس في العيش ، وما عانته امريكا من ظلم الاستعمار واستيلائه على خيرات البلاد الى جانب

ظلم الاغنياء والتفاوت الفاحش بين الناس فى العيش قد اوجد عند المفكرين فكرة توفير المال للناس يأخذونه بمقدار قدرتهم على تحصيله وتوصلوا الى ان المشكلة الاقتصادية هي الندرة للمال ، اي عدم كفاية المال فى البلد بكميات تكفي لحاجات مجموعة الناس، كان الفقر هو حاجة البلاد للمال وليست حاجة أفراد الناس له ، فصار الفقير هو المجتمع حسب فهمهم وليس الافراد ، اي هو مجموعة الناس وليس أفراد هؤلاء الناس ، وبناء على ذلك انصب التفكير على ايجاد المال فى البلد بكميات تكفي لحاجات مجموعة الناس ، وليس توفير حاجة كل فرد من الناس . وبالرغم من لمسهم ان واقع الاقتصاد هو حاجة كل فرد من الناس وليس مجموعة الناس ، وبالرغم من لمسهم ان ظلم الاغنياء لا يزال قائما بل ازداد ، وان التفاوت الفاحش بين الناس فى العيش قد ازداد ، اي بالرغم من لمسهم ان واقع الاقتصاد هو غير هذه المفاهيم . ومع ذلك ظل مفهوم المشكلة الاقتصادية عندهم هو القدرة النسبية، وظلت هذه المفاهيم الاقتصادية هي المسيطرة عليهم وعلى مفكريهم ، وتناسوا ان الواقع لا يمت بصلة الى هذه المفاهيم ، ونظرا لأن المجتمع حسب فهمهم هو مجموعة الناس ، لم يلاحظوا ان الاقتصاد اي التوفير توفير المال هو علاقات بين الافراد مع بعضهم ، وعلاقات بين مجموعة الناس ومن هو مسؤول عن توفير حاجاتهم ، وليست مالا يوضع فى اليد ويأخذ منه كل بحسب قدرته . ولهذا اعتبروا مجموعة الناس هي المجتمع، واعتبروا ان الناس هم الذين يوفرون لمجتمعهم المال ، وان الحاكم لا عليه الا ان يوفر المال للبلد بوصفه كلا اي لمجموعة الناس ، فظلوا تائهين عن معاني هذه المفاهيم يعتنقونها وان خالفت الواقع الذي هم عليه وان الحقت بهم الاضرار وركزت ظلم الاغنياء ووسعت التباعد الفاحش بين الناس فى العيش .

هذا هو المفهوم المغلوط للمجتمع ، وهذه المفاهيم المغلوطة عن الحكم وعن الاقتصاد وكل ما ترتب على معنى المجتمع عندهم من مفاهيم أخرى هي التي نقلت العلاقات بين الناس ، ونقلت مفاهيم الناس وحتى اذواقهم الى الخضوع للحضارة الغربية بل الى طريقة العيش (عند الغرب) ووجهة نظره فى الحياة . لذلك كان **من اهم ما على الناس جميعا حتى فى الغرب ، ولا سيما المسلمين فى العالم الاسلامي ان يتبنوا معنى المجتمع ، وان ينبذوا ثم يحاربوا مفهوم الغرب عن المجتمع كخطوة أولى لنبذ سائر مفاهيمه لا سيما مفاهيم الحكم والاقتصاد لأنهما الركيزة الأساسية فى التأثير .** لذلك كان لا بد من ان يتركز عند الناس ولا سيما المسلمين فى العالم الاسلامي ان المجتمع هو مجموعة الناس بأفرادهم بما بينهم من علاقات وليس البلد ولا مجموعة الناس ، وبناء على هذا التركيز يبنون عليه ان ما بين مجموعة بأفرادها هو علاقات ، وان ما بين مجموعة ومن يتولى السلطان فيها أي يتولى رعاية شؤونها هو علاقات ، وان ما بين مجموعة الناس هذه ومجموعات اخرى اي أمم ودول اخرى هو العلاقات ، وان المسألة كلها تتعلق بالعلاقات فيكون البحث هو من هذه العلاقات .

اعلانات :

الواح تعلق فى الاسواق (كامل ابن الاثير ج 10 ص 171 و ج 11 ص 29 وتاريخ ابن الفرات (ج 4 ص 17 و 64) .